طب نفسى

مشكلة أسرة: الابن.. بين الجد والأب!

د. محمد شعلان

تعليق

أيها الحكيم .. اسمح لى بأن اناديك بهذا اللقب العرفى الأصيل بدلا من دكتور أو حتى طبيب . فأنا لم آت اليك لتكتب لى تطبيا لألم أو تصف لى عقارا يخدرنى . ولكنى أتيت أبحث عمن يستمع إلى . ويشاركنى آلامى ويعينى بالحكمة على تحملها مشكلتى - أيها الحكيم - إننى شاب فى الخامسة والثلاثين . ولكنى أشعر كأنى عجوز رغم أنى لم أتزوج بعد .

إنها مشكلة أسرة تمتد إلى جيلين .. ومع ذلك فقد اتضح لى أنها مشكلة كل الأسر . أو قل هى مشكلة الأسرة الكبيرة ، أو مشكلة أسرة المجتمع بأسره . ولذا دعنى أطرح عليك مشكلتى ..

كان أبى سعيدا حينما يسر له أبوه - جدى - الزواج فى سن مبكرة . لقد أصبح رجلا بينما أطفاله مازالوا مراهقين . هم توابع فى بيوتهم بينما هو رب أسرة . يعانون من المراهقة . وهو هادىء مستقر .

كانت حكمة جدى فى ذلك أن يجنب ابنه الذى ترسخت فيه القيم الدينية . مخاطر الانحراف . كما كان يريد له أن يكبر بسرعة ويتحمل معه المسئولية فى رعاية ممتلكاته وأسرته . وكانت وراء هذه الأسباب دوافع أخرى غير معلنة فقد كان جدى يخشى الموت . ويخشى إن حومات ألا يستمر بعد مماته فى صورة ذرية يتركها من بعده تحمل ملامحه ترث خصائصه .. لقد ماتت ابنته الكبرى فى ريعان شبابها قبل أن تتزوج وبالتالى لم يتأكد استمرارها من خلال ذريتها .. ولذلك كان متعجلا فى زواج ابنه قبل ان يموت هو الآخر .

ولم تكن هناك عوائق مادية واضحة . كانت الحياة سهلة . فقد كان المنزل الريفى واسعا ولم يكن غريبا عن التقاليد أن يتزوج الأبناء وهم فى بيوت الآباء . فالبيت يتسع للجميع . بل كانت ميزة أن تجد الزوجة من حاولها فى رعاية مواليدها الجديد . وأن يشترك الجميع فى الأعمال المنزلية بدلا من أن يتحملها أحد بالذات .

وتولت الأسرة رعاية الحفيد الجديد - الذى هو أنا - بينما استمر الأب الجديد - الذى هو أبى - فى مشاركته مهام العمل مع أبيه الذى هو جدى .

.. لكن أبى بدأ يتيقن . مع مرور الزمن أنه لم يخلق ذاته عما يكون . وكان طموحا فأخذ يبحث عن مجال جديد يخلق فيه قدراته على العمل . وترك القرية والأرض كما ترك مهمة رعاية أولاده - الأحفاد - لجدهم حتى يتحرر من هذا العبء ويكرس نفسه للعمل الجديد .

ذهب إلى المدينة تاجرا فى بادىء الأمر ثم مالكا لمصنع .. ثم لعدة مصانع ومع تفاعله مع المدينة اتسع أفقه وتفتح فكره . فهو يتعامل مع المادة التى تخضع لقوانين خاصة بها تحكمها ويجعل من الممكن التحكم فيها والتنبؤ بحركتها .. وأصبح كل شىء عنده يقيم بعائده المادى . الوقت والابتسامة والكرم بل المرح . وكل فعل لابد ان يكون محسوبا بما سوف يعود به عليه من مكسب .

واستمر جدى فى القرية يزرع البذرة وينتظر المياه التى سوف ترويها . ويدعو الله أن تثمر البذرة وأن يكفيها شر الآفات . إنه باختصار .. يتوكل على الله بعد أن يعقل الناقة . وهو فى ذلك يختلف عن أبى الذى كان يمسك بالناقة فى كل لحظة .. وكان جدى علاوة على ذلك يتقدم فى السن ويعد نفسه للموت ويريد أن يترك ذكرى طيبة ولقدوة حسنة بعد رحيله . فقد أصبح كثير العبد ممارسا للشعائر الدينية بمختلف صورها .

ولكنه من جانب آخر كان يشعر ان ما سوف يتركه لابنه من أرض .. لم يعد له قيمة .. فابنه - أبى - اصبح ثاجحا بدون الحاجة إلى أرضه . وأصبح مستغنيا عن بيته . إنه يخشى أن يكون قد فقد ولاء أبى له ماديا وحضاريا .. ومع ذلك فهو يذكر دائما أنه صاحب الفضل فى تحريره من مسئولية تكوين الأسرة ورعاية الصغار . وهو الأمر الذى يسر له هذا النجاح . ويعود إليه الأمل فى الاحتفاظ بولاء ذريته من خلال ولاء الحفيد له . فأبى بعد قليل لابد أن يواجه ضرورة الاستعانة بى - أنا الحفيد - لكى يحافظ هو الآخر على تركته سوف يحتاج إلى .. وعندئذ سوف يجدنى أحمل بذور الجد وملامحه وقيمه .

.. وهكذا نشأ وضع غريب .. فأنا - الحفيد - أثور على الأب الذى تركنى لعمله وانشغل عنى . بينما الجد هو الذى استمر يداعبنى ويدللنى فى طفولتى ثم فى شبابى . والأب يثور - على الجد الذى كاد يحطم برعايته المفرطة وكاد يسلبه قدراته على المبادرة والطموح لولا أنه خرج من كنفه وترك الأرض والقرية وذهب إلى التجارة والصناعة والمدينة . والجد العجوز الذى يشعر بالأيام تهزمه يبحث عن حليف فى مواجهة ثورة الأب عليه . فيتحالف مع الحفيد - كلانا يحيا فى المستقبل ويرفض الحاضر والأب متهمك فى الحاضر . الجد ملك الماضى . وفقد الحاضر . ويبحث عن المجد فى المستقبل . وأنا أسعى للتخلص من الماضى ولا أجد الحاضر فأوامى نفسى بالمستقبل .

وتأخذ معركة الأحباب فى هذه الأسرة أبعادا فكرية . فقيم المستقبل قيم روحية فى المقام الأول . وقيم الحاضر قيم مادية . والجد يفعل الخير لأنه يريد أن يترك ذكرى طيبة وأنا أبحث عن الخير لأن الحرمان الذى أعانى منه فى حاضرى شر . والأب يعلم من خلال تعامله مع المادة أن لها قوانينها التى لا تخضع لقيم الخير والشر . وان النجاح فى المادة يستوجب قدرا من الواقعية التى قد تبدو أحيانا كأنها الانتهازية والنفعية والماكيافيلية .. مما قد يجعله فى تناطح مع أهل القيم والمبادىء .

.. والجد يتعبد وينادى بفعل الخير . ويتنازل عن ممتلكاته بإرادته استعدادا لليوم الذى سوف يتنازل فيه عن كل ممتلكاته عما فيها جسده وهو يوم موته . وأنا بدورى وتعبيرا عن ولائى لجدى وثورتى ضد مادية أبى .. أنادى أيضا بالقيم الروحية والمبادىء . الجد ينادى من موقع استسلام . وأنا أنادى من موقع التحدى .. الجد يتخوش والحفيد يتطرف . الجد ينادى بالزكاة وبالاحسان وإيتاء ذى القربى والمساكين .

وأنا أنادي بالعدالة والمشاركة.

وهنا يضحو الأب ويحاول إعادة الثراء إليه. إنه يشير إلى موضع الثراء عند الحد..

فثراء الحد واضح إذا قارناه بمن حوله من الفلاحين المعدمين. حيث كل مالك أرض لابد أن يكون محاطا بعدد كبير من المعدمين، يزرعونها له. بينما الأمر في حالة التاجر والصانع مختلف قليلا. فهؤلاء يسكنون جنبا إلى جنب في الأحياء الراقية بالمدينة والعمال والمعدمون يسكنون حالك حيث لا تراهم الأعين. الأب ثري ولكنه بالمقارنة ليس أكثر ثراء ممن حوله من التجار وأصحاب المصانع.

ومن خلال تلك المقارنة علاوة على انتقال إلى المدينة لكي استكمل تعليمي فإن الأب يحاول بل يستطيع ان يستميلني إليه. فنحن متفقون على أنه لابد من العدالة وأن التروقلن يعمل. فالعدالة لا تعني بالضرورة الغاء تاما للملكية. ويستمر الأب قائلا: وهذا جدك العجوز لا يعمل بل يملك. بينما من حوله من فلاحين معدمين يعملون ولا يملكون شيئا.

وهنا أجدني أصفق لأبي!

.. ولكن الجد العجوز لم يفقد حيويته تماما بعد. إنه مازال يأمل في استعادة ولاتي. فيزورني في المدينة حيث يعيش على استئجار شقة مستقلة بعيدا عن أبي ويصدق عليّ بالمصاريف في حدود إمكانياته التي انكمشت. بينما أبي رجل الأعمال الذي تعلم قيمة القرش يقتر علي ويحاسبني. إنه أحيانا يصطحبني لزيارة الأقارب الذين يسكنون في الأحياء الشعبية. وعندئذ تنفتح عيناي على الوجه الآخر للمدينة. حيث ينفتح لي قلبي كل هؤلاء الذين يعيشون في العشش والحواري ويتبادلون الذكرى. ثم يتقل ابي مع غيره من الآباء على تكوين شركة كبيرة ويقودون بتوسع. حسب فهمي لما يسميه في محاولة منهم للتكتل ضد الأفكار المستوردة. وهو على الأقل لو حسرت الشركة فإن الجميع سوف يتحملون الخسارة، وإن كسبت فسوف ينال النصيب الأكبر في المكسب، ولا مانع من إرضاء عامل هنا أو هناك بمنصب أو مكافأة لإسكاتهم.

ويصفق الحفيد مرة أخرى وينتظر نصيبه من عائد الوضع الجديد دون جدوى..

فالجميع مطمئن إلى أنه لن يخسر ولن يفصل. فبفل حافز العمل من أجل زيادة الانتاج. فينخفض الربح علاوة على أن الشركات العالمية الكبيرة لم يعد يعجبها أن تنشأ هذه الشركة الكبيرة وتستغني عن منتجاتها وتقطع الحواجز الجمركية أمامها.

أماه هذا الطريق بدوامع الأب وبعيد تلجه العشيرة. ثم يعد هناك حظيرة منه وقد شاخ الأب. ولا غرو من أن تعود الملكية وتعود الحواجز وتزدهر الحياة. خاصة بعد أن إن حصار الشركات الكبرى. ولكن الأب أخطأ تقدير قوة الحد الذي لم يتوان عن هذه اللحظة من إعادة تحالفه مع الحفيد مرة أخرى. إلا أنه لم يعبأ وحشد قوته لوضعها في مكانها. فالملكية تعود. ولكن ليس للأجداد بل للآباء. أما الأحفاد فعليهم الانتظار.

لقد تضحو أبي واضح مثل جدي. فقد أصبح دائنا. فبدل العمل كثيرا لكسب.. رمثل كثير الكلام في الدين والقيم ولكن دون تطبيق في الواقع. والفرق انه. لكونه حديث الثراء فهو يخشى أن يفقد ثروته. ذلك أن الذي جاء حديثا وسريعا قد يزول قريبا وسريعا أيضا. إنه قد وقع فعلا من التنازل عن مبادئه وقع في مستنقع النجاح الذي حققه. فإذا ما أكمل فعلا لديه ويتوقف عن المزيد من الكسب فإن في ذلك اعترافا ضمنيا أن ما فعله كان خطأ. وهو لا يتحمل مثل هذه المواجهة مع نفسه فيستمر في فعل ما كان يفعله. أي المزيد من النجاح والكسب دون توقع أو توقف. وعلاوة على ذلك. فلأنه حديث الثراء فإنه أيضا حديث الوعي بحالة الطموح والتطلع التي دفعته إلى هذا النجاح. وهي حالة تكاد تقترب من الطمع والجشع والنهم. وهو لعمله مرجوة هذه الحالة عند الآخرين المحرومين مما لديه والمتطلعين إليه. حتى إن توقف لحظة عن الكسب فإن ذلك يعني أن هناك آخر سيكسب ويتضخم وربما بمعدة تالانهام. أما الفرق في نشأته فهو أنه جدين أولا. وأخيرا بفعله وتكراره إلى عادة العمل الدهي. فقد علمه النجاح أن الصبر الأكبر هو الفائدة.

في الطريق هذا هو ذيه. ولكن لو أعمل ذلك فسوف يعطي أمير بعيد للقطع إلى ما تملك وحاولة الباقية هو الأهم. ولذلك لابد له أن يتضاءل بعيد ذلك. فهو الآن يتمسك بالفضائل الدينية الخارجية مثل الصلاة والصيام والحج والزكاة ويتهرب من الضرائب بحجة أنه يدفع زكاة ويتمسك بسبحة وبكثير من لوعظة. إنه يملك سلاح الدنيا ولا يريد ان يترك لنا الآخرة أيضا. وأمام هذا لا أجد أمامي الا الزيادة في التدين. ولكن حينما أصل إلى نقطة التعارض معه فإنه يرفع سلاح المادة. ومهما كانت الروح قوية فإني في النهاية أريد أن احقق احتياجاتي المادية. وجدي لم يعد يكفيني ولا أنا مكتفيا بذاتي. والدعاء وحده لن ييسر لي عملا أو زواجا.

صدقت حينما قلت إنها مشكلة أسرة بل مشكلة كل الأسر في الأسرة الكبيرة مما يجعل الحل يتطلب إشراكهم جميعا. ولكن مما أشك الشاكي الذي يعاني فهذا هو المفتاح الذي نملكه لبداية الحل. فالذي يعاني هو صاحب المصلحة في التغيير. والذي يشكو في هو الذي أستطيع أن أقدم له المعونة.

وعلى هذا فلابد أن تتيقن أنك لست الوحيد الذي يشعر بالمعاناة. بل هناك أبوك وجدك وبقية الأسر في المجتمع. كما أنك لست مجرد ضحية تربط لأبيك. لست مجرد مفعولا به. ولكنك شريك في المسئولية عما أنت فيه الآن. لقد فاتنا تشكسبير على لسان كاسيوس في مسرحية يوليوس قيصر: إنه لو لم نكن نحن خرافا لما صار قيصر ذئبا.

ولولا أنك قد اخترت أن تكون ما أنت عليه لما كان أبوك وجدك ما هما عليه. قد يبدو أنني أحملك مسئولية لم تكن تتوقعها. ولكن أول خطوة في أي طريق أن تغير ما أنت عليه. هي أن ترى أنك مسئول.

لقد كنت حتى وقت قريب تكتفي بأن تشاطر الأحزان والشكوى تارة مع الجد وتارة مع الزملاء. الا انك مرة بعد مرة. وجدت أن هذا لا يؤدي إلا إلى المزيد من الإثارة لانفعالات الغضب والنقمة دون أن تفعل شيئا يغير من الواقع. لقد وصلت نفسك بالم لأنك تبحث عن أب افتقدته. فقد أخذك أبوك قبل أن يستكمل بناء شخصيته وقبل أن يعيش شبابه. فهو لم يكن مستعدا لدور الأبوة بعد. ولما وجد أن جدك مستعدا للقيام عنه بذلك. رهذا يعني تجميد دورة كأب. وجدها فرصة لكي يعود إلى دور الشاب. وراح يركد هويته الجديدة في مواجهة أبيه. فبزلة الشاحة وذهب يكتشف نفسه في عمل جديد ومكان جديد. بينما بقيت أنت في خواء جد جدود. وهذا الجد أكبر من حاجته أملا في ألا تكون مجرد ما فعله أبوك. فتركه. أضعف إلى. فلقد أخذ جاذبيته له شبابه. فقد كان يرى نفسه فيك ومن جانب آخر فقد كنت تستمد منه القوة والحكمة. إذ كان ذلك يوفر عليك الدخول في معركة الحياة ومحاولة اكتساب هذه القوة بنفسك والحكمة بمعاناتك. الا أن استمرار مواجهتك الحميمة مع الواقع وعلاوة على شيخوخة جدك الجرابدة والشعور بالعجز المصاحب لذلك. جعلك تشكك في عدالة توزيع القوى. كما جعلك تتحسس لأبيك بعض الحق. وعندما تستطيع أن ترى احتمال الحق في الجانب الآخر واحتمال الخطأ في جانبك. فهذه علامة طيبة في طريق الاقتراب من نقطة الوسط التي يحدث التغيير ممكنا. فالتغيير لا يأتي في إلا حينما أرى أن هناك خطأ في. لأنه مادمت أرى كل صواب دائما فليس هناك أمل في التغيير. ان الذي تسعى إليه. الآن. هو حوار مع أبيك بغية الوصول إلى نقطة لقاء.

فقد طال غيابك له. وبالتالي غيابك لدورك كأب. الأمر الذي جعلك تشعر بالشيخوخة وأنت في الخامسة والثلاثين من عمرك.

والحوار مؤداه أن توجه مبادئك وقيمك الروحية إلى لغة الواقع. وذلك بالتعامل مع الواقع وتفهم قوانينه دون أن تتنكر منها. إنك تعيش التضاد بين فكرك وفعلك. تماما مثل أبيك. الفرق هو أنه يفعل - يعيش الواقع - بينما يستخدم الفكر نادرا. بينما أنت تعيش فكرك وتفكر في واقعك دون أن تحيا فيه. ولعل الحوار وأنت، يمكنا نخلق المزج المطلوب والمفيد للطرفين.

وماذا عن بقية الأسر. أسرة الشيخ الكبيرة؟

إن الظاهرة ليست غريبة ولا جديدة. فالنظم حينما تستقر وتشيخ تطلب التجديد باستمالة الشباب الذي يعيد إليها حيويتها. ولعلك تذكر ثورات الشباب بصفة خاصة في العالم في نهاية الستينات. لقد قام ماركوس بتوجيه ثورة الشباب الثقافية لأنه كان يخشى موته وموت الثورة التي صاحبها طيلة عمره والتي كان يراها تتحول تدريجيا إلى نظام مستقر وهو ما كان دائما هدف ثورته. أي أن يغير باستمرار ما هو مستقر حيث كان يتضخم البيروقراطية واستقرارها تمثلة الحصار الذي كاد يخنق ثورته. ولذلك داوم على تغيير الوجوه فيها والخروج إلى القاعدة وإلى الشباب حيث الأمل في تجديد الثورة. ولعل تطور الأحداث بعد وفاة ماو يخدمنا الحكمة التي تقول: إن الجمعيات وإن كانت تطلب التجديد والثورة المستمرة. فإنها أيضا تطلب الاستقرار. ولعل الافراط في تغليب جانب - في حالة ماو. الافراط في تغليب جانب الثورة -. وبولد الحاجة إلى الجانب المضاد. أي الاستقرار. وهو ما حدث بعد وفاته.

ولم نذهب بعيدا فإن مصر تحكمتنا من الاستمرار من خلال قدرتها على المحافظة على ذلك التوازن بين الاستقرار والاستمرار في التغيير والتجديد. الجمع بين الأحداث والأحفاد من جانب والآباء من جانب آخر ولكن ما يقلقني أن الأحفاد - الشباب - مازالوا ناعمي الأظافر. ومازالوا يتمسكون بأجداد عمرهما وشاخوا. بينما فهم الآباء كبير.

ومازالت قلقا على هذه الزهرات الشابة التي تتطلع على السطح فتذبل أو تقطف قبل الأوان.

فأمل أن يكتسب الأب في نضجه من حكمة الجد ما يجعله يرعى الزهرة ويسقيها. على كل فإن الزهرة بطبيعتها قصيرة العمر. المهم الفرة التي تخلقها.